

نحو فهم ضروري للدين والتدين



«إنَّ مِنَابَ الدِّينِ وَنَصْوَمَهُ لَا تَنْضَبُ (إِنَّا نَحْنُ نَرْزَلُنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافَظُونَ) (الحجر/٩). وما تزال السُّنَّةُ الصَّحِيحةُ مَنْبَعُ تَفْسِيرِي لِلنَّبِيِّ الْأَوَّلِ "أَوْتَيْتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ" وَقَدْ كَانَ (ص) خَلْقَهُ الْقُرْآنَ أَيْ تَطْبِيقَ بَشَرِّي لِلنَّصْوَمِ الْوَحِيِّ وَفَهْمَهَا وَتَفْسِيرُهَا بَلْ إِنَّ تَفْسِيرَ تَلْكَ النَّصْوَمِ وَاسْتِكْشَافَ أَسْرَارِهَا لَهُ مَعِينٌ آخَرُ لَا يَنْضَبُ... لَكِنَّ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ التَّفَاسِيرِ غَيْرُ النَّبِيِّ إِنَّ نَاسَبَتْ زَمَنًا فَهِيَ لَا تَنْسَبْ زَمَنًا آخَرُ وَمِنْ ثُمَّ إِنَّ التَّمْسِكَ بِهَا لِدَرْجَةِ التَّقْدِيسِ وَأَنْ تَصِيرَ هِيَ الدِّينُ لَوْنَ مِنَ الْوَانِ التَّعَصُّبِ.

ويدرك الفاقهون أنّنا في حاجة إلى أداة جيدة لتفسيير التعاطي مع هذه التفاسير وغربلتها واصطفاء ما يناسبنا منها وليس في هذا تنكر لماضينا وتراثنا بل هي الحكمة أن نشد صالتنا دون تقديس لتفاسير بشرية يعتريها ما يعتري أي جهد بشري من خطأ. كما أنّنا في حاجة إلى تحبيب الناس في الدين بمعناه الشامل والواسع الذي يستوعب الحياة فهماً وتعميرها والطاعات أداءً وخشعاعاً بل المممات أيضاً تقوى وتركتاً لصدقات جارية ينتفع بها المرء بعد مماته. ولا يمكن أن تنفك وسيلة لتحبيب الناس في الدين عن منابع الدين الصافي ووحيه أي التلقي عن الوحي بهدایات الفطرة الندية والعقل البقط والقلب النقى، ولسائل أن يقول: وأنى لنا بالفطرة الندية والعقل البقط والقلب النقى؟ ولآخر أن يقول: وكيف يتحصل الناس تلك المعاني دون فهم للنصوص بل كيف نفهم النصوص إلا عبر شرحها للذين نرى فيهم الأمانة والحفظ؟! ولآخر أن يقول: إنك لتدعونا إلى أن يتخذ كل منّا إلهه هواه؟! الحق أن هذه أسئلة مشروعة، ونريد أولاً أن نحدد عدداً من المعاني حتى لا تضل بوصلتنا بذلك كما يلي:

1- حب الدين فطرة، واحترام الدين أمر واقع، والرغبة فيه متزايدة.

2- أينما وجد الإنسان العاقل وجده معه عوامل الفهم، وأينما استقرت عوامل الفهم فهي في حاجة إلى تهذيب وغذاء روحي يهتدى بهدایات الوحي.

3- أُمّتنا في حاجة إلى تدين صحيح غير مغشوش يعتمد تحبيب الناس في ربّهم ووسائل ذلك في اتباع هدایات الوحي وسُنن النبيٍّ (ص) يقول تعالى: (قُلْ إِنَّ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يَحْبِبُكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ دُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) (آل عمران/ 31-32).

4- ولعلَّ الخطأ يكمن في فقه الدعوة (إن إرسالاً أو استقبلاً أو وسيلة وخطاباً) أو بيئة غير جيدة) فكثيراً مارأينا دُعاةً أما بهم عطب عقلي يهونون العظام ويعظمون التوافة ويربطون الناس بربّهم عبر سلسلة من الترهيب فقط وغير ما نستأنس به هنا قوله تعالى: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الرُّخْيَرَاتِ وَيَدْعُونَ زَادَ رَغَبَةً وَرَهْبَةً وَكَانُوا لَذَّا خَاطِعِينَ) (الأنبياء/ 90). ورأينا دُعاةً جهلو خصائص الإنسان فأضروا من حيث أرادوا أن ينفعوا، والنية الحسنة ليست مبرراً للوقوع في الأخطاء.

5- ولا ينكر منصف أنَّ هناك جهوداً إسلامية ودعوية غاية في الدقة والإتقان والأمانة والحفظ وذلك من أجل فهم الدين وتسهيل طُرق التعبُّد دون الالتفات إلى طُرق تحبيب الناس في التدين والتعبد بل دون تقديم معنى شامل للتعبُّد (اللهُم إِلا فرع التصوّف الصحيح بيد أنَّ ما شابهه من بُدع صرف عنه قلوب الحذرين).

6- ومع الزمن وقصوة الحياة وغلبة الماديات انحرس مجال التصوّف الصحيح وعلم التدوّق والسلوك السليم وربط الناس بحبّ بمفهوم التعبُّد ليحل محله جفاف التفاسير وجدل الفقه وثرثرة أتباع المذاهب فابتعدت تلك العلوم عن الوحي الصافي واهتم الناس بالشروحات بل حلت تلك الشروحات محل النص الديني وكاد باب الاجتهاد أن يُغلق ووصد الباب أمام تقديم حلول لقضايا الأُمّة تتبع مسارات الدين اللهم إِلا أقوال عامّة ومرسلة ونصالح طيبة لكنّها بعيدة عن جذور المشكلة ومن ثم حلها حلاً حقيقياً، ونتيجة ذلك أن صار القرآن للترتيل وللسماع رغم أنَّه روح تسري لتحيي الأُمّة، وسار الحديث للحفظ وللأدكار التي تستدعي وقت النوازل رغم أنَّ السُّنّة الصحيحة جعلت لفهم القرآن ومن ثم تكون للأخلاق نصيب منها أرأيتم كيف كان خلقه (ص)؟ كان فرآنا يمشي على الأرض.

7- يرى د. عمر عبيد حسنة أن توقف العلوم الاجتماعية والإنسانية لدى علماء المسلمين خطير بالغ ذلك أنَّه حرّم المفكّر والمجتهد من التعرّف إلى ساحة عمله، وأضاع عليه خارطة الطريق، التي يحاول أن يسلكها، لتنزيل المراد الإلهي على الواقع الناس، وتحقيق تقويم سلوكيهم بدين الله، وامتلاك شروط التغيير السليمة ويري د. حسنة أنَّ العقل المسلم توقف عن السير في الأرض، والتعرّف على تاريخ الأمم في النهوض والسقوط، واكتشاف آيات الله في الأنفس والآفاق، وآليات التغيير الاجتماعي، التي وردت في القرآن بشكل لافت للنظر، وهي أشبه ما تكون بالمعادلات الرياضية بعد أن أصبح القرآن مجرد تراتيل للتبرك... فطن كثير من المجتهددين، أنَّ العملية الاجتهادية، تكفي لها الرؤية النصفية، وهي الوصول إلى معرفة الحكم الشرعي، أمّا دراسة محل الحكم، والكيفية التي يتم بها بسطه على الواقع، وطبيعة هذا الواقع، بتركيبه المعقد، وأسبابه القريبة والبعيدة، فلم تأخذ الاهتمام المطلوب، فانفصل الدين عن الحياة، وانتهى الفقه إلى تجريدات ذهنية وأراجيز حفظية لا نصيب لها من الواقع... ثم يقول د. حسنة: التغيير لابدَّ له من إدراك المراد الإلهي أوّلاً ومن ثم آليات فهم المجتمع بالمستوى نفسه، حتى يتم الإنجاز، وقد تكون مشكلة الحمارة اليوم أنَّ الذين أدركوا آليات فهم الواقع لم يؤمنوا بالخطاب الإلهي، وكثير من الذين آمنوا بالخطاب الإلهي لم يدركوا آليات فهم الواقع.

8- وبناءً على ما سبق فإذاً في حاجة إلى فهم النصوص فهماً معاصرًا ولا يتّأتى ذلك إِلا إذا أوجدنـ الفاهمـ المعاصرـ إذا ما قيمة الدواء إذا افتقد الطبيب؟! وما فائدـةـ الوحيـ إذا افتقدـناـ الفـقهـينـ والـتـربـويـنـ الـذـينـ يـحـسـنـونـ تـحـبـبـ النـاسـ فيـ ربـهـمـ بـقـلـبـ نـفـيـ وـعـقـلـ يـقـظـ ... أُمّـتـناـ فيـ حـاجـةـ إـلـىـ فـهـمـ صـحـيـحـ لـنـصـوصـ الـدـيـنـ وـمـنـ ثـمـ طـرـيـقـ مـبـتـكـرـةـ لـتـحـبـبـ النـاسـ فيـ الـدـيـنـ وـالـتـدـيـنـ وـابـتـكـارـ طـرـائـقـ لـحلـولـ قـضاـياـ الأـمـةـ ... هـكـذاـ هوـ الـدـيـنـ مـاـ أـنـزـلـ لـيـشـقـيـ النـاسـ بـلـ لـيـحـبـواـ حـيـاةـ كـرـيمـةـ، وـلـيـسـ الـذـيـ يـجـعـلـ نـصـوصـ الـدـيـنـ لـلـتـلـاوـةـ وـالـتـبـرـكـ دونـ حـرـكةـ نحوـ الـبـنـاءـ وـالـتـعـمـيرـ لـيـسـ بـالـذـيـ يـُـبـنـيـ أـمـةـ بـلـ يـصـرـفـ النـاسـ عـنـ هـذـاـ الـدـيـنـ إـذـ يـرـوـنـ الـحـلـ لـمـشـكـلـاتـهـ لـدـىـ غـيرـهـمـ... وـمـاـ هـكـذاـ يـرـادـ لـلـإـسـلـامـ إـنـّـمـاـ يـرـادـ لـهـ لـيـكـونـ مـهـيـمـاـ وـلـيـكـونـ دـسـتـورـ حـيـاةـ الـبـشـرـ وـلـيـجـدـ النـاسـ فـيـ تـعـالـيـمـهـ حـيـنـ تـطـبـيقـهـ سـعـادـهـمـ...

في النهاية :

يحتاج الناس إلى حب الدين والتدين ويتحقق ذلك إذا وجد الناس في الدين خلاصاً ومنقذاً وسعادة لحياتهم والفاقهون والتربيون تقع عليهم تلك المسؤولية ويرجى أن يكون ذلك عبر مؤسسات تفید الدين باجتهادات معاصرة لقضايا الأمة .►